إنتاجية التنظير وإبستمولوجية التحليل

قراءة في كتاب "السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها" لسعيد بنكراد

عبد الرحمن التمارة

الكلية المتعددة التخصصات– الرشيدية

–مدخل

شكّلت السميائيات، باعتبارها علماً بتياراته واتجاهاته المختلفة، إطاراً معرفياً ممتلكاً لمبادئ نظرية نوعية، وخاضعاً لإطار منهجي إجرائي محدّد المعالم، ومؤسساً على شبكة مفاهيمية مضبوطة. كما أنّ السميائيات فتحت أفقاً نقدياً عميقاً في التعامل مع قضايا معنى النصوص الأدبية والفنية، والتعابير غير الفنية والأنماط الثقافية والممارسات المجتمعية. لهذا، أسست السميائيات أجهزة نظرية مكّنت من ضبط كيفية إنتاج دلالة النصوص والخطابات والتعابير..، ومعاينة تكوّنها وفق سيرورة حركية. بهذا المعنى، فإن إنتاج الدلالة، من منظور السميائيات، يتمُّ عبر مستويات مختلفة، فيصير معها النّص مفتوحاً على عدَّة دلالات محتملة، وليس مجرد فضاء لالتقاء علامات دالة متعدّدة.

ولّدَ الاهتمام بالسميائيات دينامية نقدية، في المشهد الثقافي العربي والمغربي، غايتها كشف طبيعة هذا العلم، وخصائصه المميزة، إبستمولوجياً ومنهجياً، الضابطة تحقُّقَه كمجال معرفي مميّز ونوعي. إنَّها الدينامية المعرفية والحركية النقدية التي أفضت لظهور كتاب الناقد والمترجم والسميائي المغربي سعيد بنكراد "السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها"(1). اتَّجهَ هذا المنجز صوب البحث في السميائيات، سواء كانت السميائيات الدلالية أم التداولية من جهة، وفي تحليل نصوص، ليست اللغة أداتها، وخطابات وأشكال التفاعل الثقافي والتواصل الإنساني بخلفية منهجية سميائية من جهة ثانية. بهذا المعنى، فإنّ الناقد انشغل بالسميائيات باعتبارها علماً، فعملَ

على الإحاطة المعرفية به من عدّة زاويا كالتأسيس والموضوع والامتداد، وبوصفها آلية معرفية ومنهجية قادرة على كشف دلالات وأبعاد مختلفة للصورة والجسد واللغة والألبوم الفوتوغرافي وغيرهم.

1-الهندسة البنائية/إبستمولوجية التدرّجُ

يقوم كتاب "السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها" على هندسة بنائية قوامها نظام الفصول، تنشدُّ جميعها للسميائيات نظرياً وتطبيقاً. لهذا، فالعناية النقدية بالسميائيات في المستوى التّصوري النظري، والمستوى الإجرائي التطبيقي، أفضت لهيكلة تنظيمية يحددها الباحث في قوله: "قسّمنا كتابنا هذا إلى سبعة فصول. تناولنا في الفصل الأول السميائيات من حيث الموضوع والأصول الفلسفية العامة والامتداد في التاريخ القديم والحديث. لنعود من جديد في الفصل الثاني إلى عرض التصور السوسيري للسميولوجيا. أما الفصل الثالث فعرضنا لتصور بورس للسميائيات. أما في الفصل الخامس فقد عرضنا لسميولوجيا الصورة .. وهذا ما حاولنا توضيحه في الفصل الخامس من خلال تقديمنا لقراءة في ألبوم فوتوغرافي لداود أولاد السيّد .. أما في الفصل السادس فقد قدمنا دراسة لنمط آخر في وجود التدلال (السميوز)، يتعلق الأمر بالجسد واللغة المنبثقة عن كلية وجوده .. أما في الفصل السابع فحاولنا تقديم بعض الملاحظات الخاصة بالمعنى"(2).

تؤسِّس الهندسة البنائية للدراسة النقدية "السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها" لما يمكن تسميَّتهُ إبستمولوجية التّدرُّجَ البنّاءَ؛ ونعني به الاشتغال النقدي على السميائيات من المداخل النظرية العامة (موضوع السميائيات وأصولها الفلسفية وامتداداتها المختلفة) أوّلاً، ثم الانتقال لمعالجة تحليلية لقضايا جزئية (تصور سوسير وتصور بورس) وجزئية خاصة (سميائية الصورة والألبوم والجسد، ثم المعنى) ثانياً. بهذا المعنى؛ فإنّ فلسفة التَّدرجّ البنّاء، في التناول النقدي للسميائيات، مؤطرة بثلاث مقولات، في تقديرنا على الأقل، هي: الانتظامُ الهرميُّ، والتّميّزُ البِيداغُوجيُّ، والتَّعالقُ المعرفيُّ.

يكشفُ الانتظامُ الهرميُّ رؤية معرفية نقدية تأسيسية، ويُبرزُ عُمقَ تَّحكّم الباحثِ في المجال المعرفي قَيْدَ الدراسة والتحليل (السميائيات) من مداخلَ مختلفة؛ سواء كان مدخل التَّصوُّر النظريّ، أم مدخل الإنجاز النّصي. لهذا، تُساهمُ مقولةُ الانتظام الهرميّ في ضبط "الهوية" النظرية

والتطبيقية للسميائيات. لذا، فإنّ المعرفة الموسّعة لأصول تشكُّل السميائيات وتكوّنها تُعدُّ أساسيَّة وجوهريَّة، مما أفضي لتعميق الوعي بامتداداتها المتنوعة، ثمَّ إدراك، في مستوى خاص محدّد ودقيق، أساليب وطرق اشتغالها منهجياً في تحليل النصوص والفنون والتعابير والأشكال الثقافية والتواصلية المختلفة. من هنا، فإنَّ أهميةَ مقولة الانتظام تكمُنُ في توجيه البحث في السميائيات بوصفها نظرية متصلة بالمعنى والدلالة، وباعتبارها نظرية تستهدف إنتاج المعرفة. إنّه توجيهٌ منظَّمٌ ومنهجيٌّ، محكومٌ بمسار استدلاليّ استنباطيّ، يبيِّنُ أنّ النقدَ، كان نظرياً أم تحليلياً، ممارسةٌ إبستمولوجيةٌ، لكنَّ تحقيقها رهينٌ بالتنظيم المعرفي الدقيق؛ لأنه "ليس النقد مجرد نقض أو دحض، بقدر ما هو اجتراح إمكانيات جديدة للتفكير أو للتعبير، للقول أو للعمل"(3).

ويُبيِّنُ التّميّزُ البيداغوجيُّ الخلفية التربوية والتعليمية التي تُميُّز الممارسة النقدية والخطاب التنظيري. لذا، إذا كانت مقولة التّميّز متولّدة من مقولة الانتظام سببياً، فهذا يعني أنّ وعي الناقد بموضُوعِه (السميائيات) اتَّخذَ طابعاً مركباً؛ لأن غاية الناقد المعرفية لا تتجلّى في إدراك القارئ الهويّة المميّزة والنّوعية للسميائيات، في كينونتها النظرية وتحققها التطبيقي، فقط، ولكن يُدركها منتظمةً ومضبوطة في سيرورة تشكُّلها، وتصورات مُؤسِّسيها، ومميزات اتجاهاتها، وكيفية مساهمتها في بناء المعنى وإنتاج الدلالة. وكأنّ الناقد يقول لنا، عبْرَ الهندسة البنائية للكتابِ: لا بحث في السميائيات، أو في غيرها، دون تنظيم للمادة المعرفية، لأن التنظيم، المؤطر برؤية إبستمولوجية، يساهم في إدراك نوعي للعناصر المساهمة في تشكيل المادة، وتكوين عناصرها. لهذا، فمقولة التّميزُ البيداغوجيُّ تبيّنُ أنّ النّقد "هو بناء إمكانات جديدة للتفكير تغيّر من شروط المعرفة بقدر ما تتيح للواحد أن يفكر بطريقة مغايرة، أي أن يفكر في ما كان يستعصي على التفكير أو أن يقول ما لم يكن ممكنا قوله"(4).

ويُبرزُ التَّعالقُ المعرفيُّ استراتيجية التنظير والتحليل، من منظور سميائي، القائمة على الحوار المعرفي بين نماذج نظرية سميائية مختلفة. لكن تبقى ضمن دائرة إبستمولوجية مزدوجة؛ يظهر أساسها الأول في السميائيات الدلالية (سوسير)، ويتجلّى أساسها الثاني في السميائيات التداولية (بورس). بهذا المعنى، فالتعالق المعرفي يُبيّن رهان التنظير المحدّد في خلق حوار إبستمولوجي عميق بين النظرية البنيوية للغة، وتحديدها لطبيعة العلامة اللسانية وتصورها للدلالة، وبين النموذج

السميائي البورسي الذي يقوم على البحث في تحديد آليات الإدراك، وضبط سيرورة التمثل والتمثيل. فضلاً عن هذا، يُبرزُ التعالق المعرفي القيمة الحقيقية للسميائيات لمّا توفر إمكانات هائلة لبناء الدلالة، وكشف أشكال وجود المعنى في النصوص والأشكال الثقافية والأنساق التواصلية. من هنا، فالتعالق المعرفي يوضّح أن إنتاجية التنظير وإبستمولوجية التحليل متولّدة من الترابط القويّ بين العلم (السميائيات) واللغة (سوسير) والفلسفة (بورس) والنسق البصري (الصورة، الصور) والنسق الإيمائي (الجسد).

2–الغايات/الإدراك والتفعيل: لا تظهر غايات الناقد العلمية بشكل مباشر، بل تظلُّ خفيّةً في عتبة/مقدمة الكتاب. لهذا، نُقدِّم نماذج من الخطاب النقدي بمقدمة الكتاب، ثمّ نشتقُّ منها الرهانات المعرفية المتوخى تحقيقها. يقول الناقد: "إنّ السميائيات ساهمت بقدر كبير في تجديد الوعي النقدي من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى. ولقد قدمت في هذا المجال مقترحات هامة عملت على نقل القراءة النقدية من وضع الانطباع والانفعال العرضي الزائل والكلام الإنشائي الذي يقف عند الوصف المباشر للوقائع النّصية، إلى التحليل المؤسس معرفياً وجمالياً "(5).

يبدُو القول مفتوحاً على رهانٍ إبستمولوجي بمستويين متداخلين؛ المستوى الأول قوامُهُ إدراك أهمية السميائيات، باعتبارها علماً، في تشييد خطاب نقدي بمواصفات جديدة، واقتراح منهجية (طريقة) ملائمة تساهم في خلخلة منظور القراءة التقليدية، وتؤسس منظوراً جديداً في اقتراح المعنى وبناء الدلالة. والمستوى الثاني مَركزُهُ تعميمُ الوعي بقوَّة تحليل، مدعوم بخلفية سميائية، النصوص والأنساق والإيماءات ..؛ لأنه تحليل جسَّد نقداً جديداً، فصار ممتلكاً لوجود معرفي يتجاوز النقد المشروخ بالذاتية والانطباعية والإنشائية..، وكلُّ ما ينزع عنه المشروعية الفكرية، ويُصيّره خطاباً منتجاً للمعرفة وبانياً لها. وبهذا المعنى، فرهانُ الناقد الإبستمولوجي يتجلَّى في تَعميمِ الوعي بأنَّ السميائيات مجالٌ علميٌّ قادر على دعم المعرفة النقدية، النظرية والتطبيقية المحققة والمنجزة، بمستويات معرفية ومنهجية جديدة. وهذا يجعلُ النَّاقد مُجدّداً في خطابه النقدي، لأنّه يبني علاقاته بالنقد، نظرياً وتطبيقياً، على سُلطةِ الغِنَى الثَّقافي وفلسفة الاجتهاد المفضيّ لتطوير الخطاب النقديّ وإغنائِهِ؛ ما دام "أنّ النقد ينبثق من ثقافة العقل القارئ

لا من النّص المقروء، فيتَّسع النقد ويغتني ويتطوَّر إنْ كانت ثقافة القارئ متَّسعةً ومتنوّعةً ومتطوّرة، ويُضيق وينكمشُ إنْ كانت ثقافة القارئ فقيرة ومتكلسة وقارة"(6).

يقول الباحث، اقتراناً بالمنحى المعرفي المدعِّم للرّهان السابق: "إنّ كتابة تاريخ علم ليس بالأمر الهيّن، خاصة إذا كان هذا العلم ينتمي إلى ميدان الإنسانيات المعروفة بتنوع جهات نظرها، بل بتناقضاتها الدائمة والمستمرة. ولهذا السبب، فإنّ كتابة تاريخ السميائيات، أو حتى محاولة تحديد بعض محطاتها الكبرى أمر بالغ الصعوبة، ويثير حوله الكثير من الجدل، بل قد يؤدي إلى الكثير من سوء الفهم"(7). يتبدَّى الرِّهانُ العلميُّ، من هذا القول، مُتمثلاً في أمرين؛ الأمرُ الأوّلُ تُوضِّحُهُ مقولةُ إشكالية التّأريخ، والأمر الثاني تُبيّنهُ مقولةُ التَّشييد الجزئيّ. تُعبّر مقولة إشكالية التأريخ لعلم السميائيات، كغيره من العلوم المقترنة بحقل الإنسانيات، عن قضية غياب معايير معرفية للتأريخ المطلق. إنّ هذه الإشكالية تعبّر عن مأسسة تنسيب التأريخ للعلوم ذات النزوع الإنساني. بهذا المعنى، تتبلورُ مقولةُ التَّشييد الجزئي للدَّلالة على رهان علمي، يريد الناقد تحقيقه، متمثلٍ في الانشغال العلمي بالسميائيات من وجهة نظر الناقد. وكأنّ الناقد يؤكد، قبل معرفة السميائيات وموضوعها ومؤسسها وامتداداتها وقدرتها في توليد الدلالات، أنّ ما يبنيه (التشييد)، في خطابه النظري والتطبيقي، يمثّل بحثاً في مداخل خاصة (الجزئي) تهمُّ السميائيات. لهذا، فجوهر المعرفة النّصيّة تعتَبِرُ السميائيات علماً مستعصياً على المقاربة التفصيلية لكل مكوناتها النظرية، ومختلف موضوعاتها واتجاهاتها وامتداداتها التطبيقية.

لقد تطلَّع الباحث للتعبير عن هدف معرفي برؤية تنظيمية منهجية، قائلا: "وقد **التزمنا** في هذا الكتاب موقف "الحياد الإيجابي"، فعرضنا لجهة نظر المؤسسين: بورس وسوسير وموقعهما من التطورات التي عرفتها السميائيات في الثلث الأخير من القرن العشرين، لكننا حددنا جهة نظرنا ونحن نقدم النماذج التطبيقية معلنين **انحيازنا** المطلق إلى سميائيات تأويلية ترى في النّص خزاناً من الاحتمالات الدلالية، لا تجميعا كميّاً لعلامات"(8). يتضمّن هذا القول إشارة إلى هدفين معرفيين؛ الأول مبنيٌّ على إثبات وضع معرفي (التزام موقف الحياد)، والثاني قائم على خيار قيمي (الانحياز المطلق). إنّ الهدف الأوّل يأخذ بفكرة العرض العلمي للسميائيات، وأخذ مسافة نقدية منها. أمّا الهدف الثاني فيطرح قضية الكينونة الفعلية للناقد القائمة على الذاتية

والتفكير. وكأنّ الناقد يراهن على تثبيت فكرة مفادها: إنّ مهمة الناقد لا تظل دائماً، أثناء التنظير، مُغرقة في التجريد النظري، مما يُبعد تدخّل الذات الناقدة في المعرفة المعروضة. لهذا، فالعناية بالسميائيات لا تنزع لتغييب الذات الناقدة المفكرة (أنا أفكر)، وإنما تتوخى تفعيل الوعي والفكر الذاتي، خارج منطق الوهم أو الادعاء المعرفي، وتلتزم بأخلاقيات النقد، وكل ما يُكسبهُ الشَّرعية المعرفيَّة، ويمنحهُ معايير الإنتاجية والمقبولية.

3-المحتوى/من التصورات إلى الامتدادات

يتأسس المحتوى المعرفي لكتاب "السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها" على مسارين؛ الأول أساسُهُ العرض المعرفي لموضوع السميائيات ومؤسسيها، والثاني قوامه التحليل السميائي للأنساق البصرية والإيمائية. بهذا المعنى، فالمحتوى النظري والتحليل النقدي في النص يكتسب أهميته المعرفية من التأسيس النظري، ومن تشييد منهجية التحليل السميائي لنصوص وخطابات متنوعة، ليست بالضرورة أدبية أو فنية. لهذا، أمكننا مقاربة المحمولات الأساسية لهذا النص في خطوتين منهجيتين:

1-السميائيات: الموضوع والتصورات المؤسِّسة

تتحدّد السميائيات بوصفها نشاطاً معرفياً ممتلكاً لخصائص نوعية تميّزه، وتتعيّن باعتبارها علماً منفتحاً على المعالجة المعرفية لعدّة مجالات. بهذا المعنى يتبدى موضوع السميائيات ممتدّاً لقضايا كثيرة تميّز الفعل الإنساني، ما دام "أنّ موضوعها غير محدّد في مجال بعينه، فالسميائيات تهتم بكل مجالات الفعل الإنساني: إنها أداة لقراءة كل مظاهر السلوك الإنساني بدءاً من الانفعالات البسيطة، مروراً بالطقوس وانتهاءً بالأنساق الإيديولوجية الكبرى"(9). يبدو أن موضوع السميائيات لم يبق محصوراً في مجال بعينه، لكن ذلك لا يعني ضياعَ موضوعها والتباسه. لهذا نتساءل: ما هو موضوع السميائيات؟

يجيب الناقد عن هذا السؤال ضمن سياق إبستمولوجي غايته تشييد خطاب نظري يضبط، بدقة وعمق وتدرّج منهجي، موضوع السميائيات. لذا، يلجأ الناقد إلى فحص التصورات المفضية لتحديد موضوعها، مفككاً تصورات متداولة حول هويتها النظرية، ومقاربات سائدة منشغلة بالاقتراحات التأويلية التي توفرها السميائيات. هكذا، ينفي الناقد

ويؤكد قائلاً: "لا تنفرد السميائيات بموضوع خاص بها، فهي تهتمّ بكل ما ينتمي إلى التجربة الإنسانية العادية شريطة أن تكون هذه الموضوعات جزءاً من سيرورة دلالية"(10). يتّضح أنّ الناقد يحلّل نظرياً موضوع السميائيات انطلاقاً من عنصر الذات (الإنسان)، ومن مسار الدلالة (التّدلال). لهذا، سنقف عند التحديدات(11) التي يقترحها الناقد في خطابه، لتوضيح تصوّره التشييدي لموضوع السميائيات. هكذا، يقول أولاً: "موضوع السميائيات الأول والأساس هو المعنى وأشكال وجوده" (ص 18). ويقول ثانيا: "إن كلّ مظاهر الوجود اليومي للإنسان تشكّل موضوعاً للسميائيات" (ص19). ويقول ثالثاً: "إن السميائيات وسعت من دائرة اهتماماتها لتجعل كل الأنساق التواصلية التي يستعين بها الإنسان في خلق حوار مع الآخر موضوعاً لها" (ص20). ويقول رابعاً: "إن الموضوع الرئيس للسميائيات هو السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة، أي ما يطلق عليه في الاصطلاح السميائي التّدلال (sémiosis) " (ص22). ويقول خامساً: "إن السيرورة الدلالية التي تقود إلى الكشف عن المعاني وأنماط وجودها من خلال مواد تعبيرية متنوعة هي ما يشكّل الموضوع الفعلي والحقيقي للسميائيات" (ص32).

يتبدّى موضوع السميائيات واضحاً، فيظلّ في إطار بناء الدلالة، وتفكيك الأنساق التواصلية، ودراسة السلوك السميائي للإنسان. لهذا، فالسميائيات مؤطرة بمقولة "الإنتاج المعرفي"، لأنها تقترن بتشييد المعنى وتحديده بطرق متنوعة، وذلك عبر سيرورات التّدلال. لذا، تتجلّى السميائيات، أحياناً، نظرية في التأويل (ص36)، تدعم فلسفتها الإبستمولوجية وتقوّيها؛ حيث "إنّ السميائيات تعتقد أنّ كلّ عملية تأويل تأتي بمعلومة جديدة تُغني المعرفة التي تختزلها العلامة في تحقّقها البدئي"(12). يدفع هذا الفهم للتساؤل: ما هي مميزات التصور السوسري والبورسي للسميائيات؟

ربطَ الناقد البحث في السميائيات، كما تتجلى خلفيتها عند سوسير، بقضية العلامة اللسانية، وما يتولّد عنها أثناء التفكير في اللسان بتحقّقه المؤسساتي (الجماعي الاجتماعي) والكلام في كينونته الفردية والذاتية. لهذا، شكل المنطلق البنيوي (النّسقي) للغة إطاراً نظرياً أفضى لتبيّن الصرح النظري الذي شيّدهُ سوسير، الذي خصَّ الدال والمدلول بتحليل عميق. بهذا المعنى، فالسميائيات عند سوسير كانت طموحاً علمياً، أمّا اللسانيات فكانت تحققاً تنظيرياً

فعلياً. من هنا، بنى بورس تصوّره للسميائيات على منظور فلسفي تداولي، الذي يخالف تصور سوسير. لذا، فسميائيات بورس تقوم على منطلقين، الأول منطقي، والثاني ظاهراتي. هكذا، تبدو "السميائيات عنده لا تنفصل من جهة عن المنطق باعتباره القواعد الأساسية للتفكير والحصول على الدلالات المتنوعة. ولا تنفصل من جهة ثانية عن الفينومينولوجيا باعتبارها منطلقاً صلباً لتحديد الإدراك وسيروراته ولحظات تشكّله"(13). إنه التصور الذي قاد بورس لصياغة نظرية للسميائيات تسعفُ في إدراك سيرورة التمثيل، انطلاقاً من المقولات الفينومينولوجية الثلاث (الأولانية/الإمكان، والثانيانية/التحقق الفعلي، والثالثانية/القانون). إن ضبط هذه المقولات رهين بإدراك المكونات الثلاثة للعلامة (الماثول، الموضوع، المؤول)، لأنها تسوّغ تشكّل التّدلال (السميوز)؛ بوصفه، في نظرية بورس السميائية، "النشاط الترميزي الذي يقود لإنتاج الدلالة وتداولها"(14).

كشف الناقد الرؤية المعرفية المتحكمة في بورس، فأسَّس السميائيات خارج مقتضيات الكلام واللسان، وإنما بناءً على أبعاد ودلالات تجربة الإنسان في الوجود والمحيط، وِفقَ "مبدأ التوسّط". بهذا المعنى، يتبدّى "أنّ التجربة الإنسانية هي موضوع السميائيات البورسية"(15). لكن التجربة التي صارت رمزاً، وظهر الفعل أو السلوك الإنساني تعبيراً أو شكلاً رمزياً. إن بناء دلالة التجربة الإنسانية، بوصفها تعبيراً رمزياً، يتمُّ عند بورس وِفْق سيرورة يولّدها الترابط بين العناصر الثلاثة المكونة للعلامة: "**أداة** للتمثيل، تستدعي **موضوعاً** للتمثيل، **ومؤولاً** كرابط بين العنصرين"(16). بهذا المعنى، فإن اقتراحات سوسير واجتهادات بورس تسعفُ في امتلاك جهاز نظري وشبكة مفاهيمية تُدعّم إبستمولوجية التأمل النقدي، وتعمّقُ التّحليل السِّميائي للصّور والإيماءات، ضمن أفق معرفي يستهدف إنتاج معرفة، ويتوخى تشييد قراءات تحليلية تنتهك النماذج الهادفة إلى التأكد من صحة النظرية أثناء التطبيق.

2-السميائيات: السيرورة الدلالية

ينتقل الباحث، في هذا المحور، إلى التحليل السميائي للصورة؛ سواء كانت متحققة في ذاتها ضمن إطار مستقل، أم كانت ضمن "ألبوم فوتوغرافي". فضلا عن قراءة خاصة للجسد باعتباره "نسقاً تواصلياً". إن الأمر يتعلّق بدراسة سميائية تتأسس على مستويين متعالقين؛ الأول

قوامه إدراك الصور والجسد، والثاني أساسه إنتاج الدلالة. إنه جهد واجتهاد نقدي يحوّل المعرفة المتحققة نظرياً (كما تجلّت في الشّق النظري) إلى أداة إجرائية تسعف في كشف أبعاد الأنساق البصرية والإيمائية، وإبراز دلالاتها المتعدّدة والمتنوعة. بهذا المعنى، فالباحث يشتغل على السميائيات من زاوية بناء الدلالة باعتبارها سيرورة، مما يفضي لتصور مسارات تدليلية متعددة، بعد تجاوز المعنى المباشر. وكأننا بالناقد يدمج المتلقي في سياق إبستمولوجي قائم على كشف، المؤطر بجهد معرفي وفكري قوي، الدلالة بناءً على "هرمينوطيقا الشك" hermeneutics of suspicion التي تبحث عن اكتشاف الافتراضات غير المفحوصة التي قد يعتمد عليها نص ما"(17).

قد لا يكون النّص، بالضرورة، فنيّا أو إبداعياً أو أدبياً. لهذا، يُعلُن التحليل السميائي للنسقين البصري والإيمائي عن ملاءمة التجريد النظري للتحقق الفعلي، وعن قدرة الخلفية السميائية في بناء التعدد الدلالي لتلك الأنساق. لا يتعلق الأمر بأهواء ذاتية وأحكام حدسية، يعتمدها الناقد، بل يتّصل الأمر بتفكيك شفرات الصورة وتمثيلاتها، وإنتاج الدلالة وِفْق المنظور الدينامي المعرفي والثقافي الذي تولّد فيه النسق البصري؛ لأن "الوقائع البصرية في تنوعها وغناها تشكّل "لغة مسننة"، أودعها الاستعمال الإنساني قيّماً للدلالة والتواصل والتمثيل. استناداً إلى ذلك، فالدلالات التي يمكن الكشف عنها داخل هذه العلامات هي دلالات وليدة تسنين ثقافي وليست جواهر مضمونية موحى بها"(18). يظهر أنّ الدلالات المتولّدة من الواقعة البصرية، مشخصة في الصور، محكومةٌ بسنن ثقافي. لذا، فهذا التَّسنين يشتغل ضمن سياق إبستمولوجي وأنطولوجي محقّق، مما يمكِّن من إنتاج دلالة الصورة عبْرَ سيرورة إدراكية. إنَّ هذا يعطي أهمية كبرى للقائم بفعل إنتاج الدلالة، بناءً على منسُوب معرفته، وعلى قدراته الإدراكية لتوظيف تلك المعرفة في بناء الدلالة وتشييدها؛ حيث "إنَّ إدراك "الواقع" لا يتمُّ انطلاقاً مما تشتمل عليه هذه العلامة من عناصر قادرة على إحالتنا على "تجربة واقعية"، بل يتم عبر المعرفة السابقة التي تتوفر عليها الذات المدركة، فهي الشرط الضروري لتحديد هويّة ما يتمّ إدراكه"(19).

تحيل المعرفة على حاملها، ويشير الإدراك إلى طريقة توظيفها. لذا، فالذات الحاملة لمعرفة نوعية تتمكن من تحديد أبعاد الواقعة البصرية، وتفكيك تسنينها ضمن السياق الثقافي المساهم في تحققها. بهذا المعنى، يحيل السياق الثقافي على العنصر المساعد في تشييد دلالة الواقعة البصرية،

خارج قالب دلالي جاهز. لذا، يتبدّى التسنين الثقافي أساسياً في بناء الدلالات المتعدّدة للواقعة البصرية، لكن ضمن سيرورة إدراكية تبيّن أهمية الذات في إدراك مختلف مكونات تلك الواقعة. لذلك، فإنه "لا وجود لكيان بصري مكتفٍ بذاته وحامل لدلالته خارج أيّ سياق، إنّه لن يكون كذلك إلاّ في حدود دخوله ضمن عالم التسنين الثقافي المسبق"(20).

تتولّد دلالة الكيان البصري من مكونين بارزين: المكون الإيقوني، والمكون التشكيلي. لذا، فإن تأويل الصورة، باعتبارها واقعة بصرية، يظلُّ مرهوناً بتفكيك عناصرها المتعدّدة، ويبقى مدخلاً لإدراك علاقة الإنسان، وحضوره الممكن، بهذه الواقعة البصرية (الصورة)؛ لأنّ "كلّ التأويلات الممكنة للصورة يجب أن تستند إلى هذه المعرفة الخاصة بالحضور الإنساني داخل الكون من خلال مجمل لغاته، وعلى رأسها لغة الجسد. ففهم الصورة وقراءتها مرتبطان بقدرة المتلقي على القيام بالتنسيق بين مجمل العناصر المشكلة لنصّ الصورة، وهو تنسيق لا يستند إلى ما تعطيه الصورة، بل يستند إلى معاني هذه العناصر خارج الصورة وضمن سياقات الفعل الإنساني المتنوعة"(21). يتبدى التفاعل بين المتلقي والصورة أساسياً في إدراك الواقعة البصرية، والوعي بجوهرها التكويني المفضي لتوليد دلالاتها. إنه وعي مزدوج؛ أساسه الفهم والإدراك أولاً، وقوامه التحليل والدراسة ثانياً. يتحكم هذا الإدراك الثنائي الوظيفة (الفهم والتحليل) في الواقعة البصرية؛ سواء أكانت صورة منفردة ومستقلة، أم كانت صورة ضمن نسيج علائقي من الصور (ألبوم فوتوغرافي).

يحلل الناقد الصورة في تحققها التعالقي داخل ألبوم صور من داخل التصور الإبستمولوجي والمنهجي السابق. لهذا، فالصور التي يضمها ألبوم فوتوغرافي، لداود أولاد السيد بعنوان "مغاربة"، فرضت "استنطاق" أبعادها ودلالاتها الخفية، عبر إجراء تأويلي ملائم للواقعة البصرية التي تضمر "قولاً بصرياً". إن صور الألبوم شيء قريب من الحكاية، حكاية مكثفة توحي بدلالات مختلفة للعناصر التي تشكّلُ هويّة الصور وجوهرها. هكذا، لا تظلّ أبعاد الحكاية متمركزة حول "المغاربة"، بل تنفتح على الإنسان في كينونته الرمزية، المتعالية على الشرط الزمني والمكاني. لذا، فالأوضاع الإنسانية التي تحيل عليها صور الألبوم لا تخص الكائن البشري في الجغرافية المغربية، بل تهمُّ الذات الإنسانية في تحققها الفعلي القائم على جدلية الفردي والكوني.

وكأن تمثل الفرد–الإنسان داخل صور الألبوم قابلٌ لتوليد دلالات متنوعة، ومساهم في اشتقاق عدة أبعاد للكائن البشري كما تبرزها ثيمات ذات طبيعة فكرية واجتماعية؛ حيث "يكفي أن نشير إلى بعض الثيمات الرئيسة التي تحيل عليها الكثير من الصور لينجلي الأمر عن وضع إنساني خاص، وضع يتخلله بؤس ينتشر في الفضاء والمباني والأشياء والوجوه والطقوس الوظيفية منها والمتعيّة"(22).

يتقاطع هذا التحليل مع القراءة السميائية للنسق الإيمائي، نظراً لاستحضار الإنسان في كينونته الجسدية. لهذا، يصير الجسد مجالاً للدراسة والتحليل، بناءً على الخلفية المنهجية للمعرفة السميائية. إنّ المقاربة النقدية للجسد تؤكد طابعه الطاغي في الوجود اليومي، انطلاقاً من حضوره وامتلائه وهويته وايحاءاته؛ على اعتبار "أنّ الجسد يحتلّ مكانة هامة في حياتنا اليومية، إنه المبدأ المنظم للفعل، وهو الهوية التي نُعرف ونُدرك ونُصنّف، وهو أيضاً الواجهة التي تخون نوايانا الأكثر سرّا"(23). بهذا المعنى، يتجلّى الجسد في تحققه الوجودي والدلالي بوصفه شيئاً وموضوعاً ونسقاً، مما يسعف في بناء دلالاته المتعددة، بناءً على حركاته وإشارته وفعله وتنقله.. في الفضاء الكوني. لهذا، لا يمكن الاشتغال النقدي على الجسد من زاوية الجزء أو الكل، بل من زاوية تفاعلهما معاً؛ حيث يظلُّ "الجسد كلا وأجزاء في الوقت نفسه، إنه يُولِّد معطى انفعالياً وغريزياً وثقافياً عاماً، ولكن هذا المعطى لا يُدرَك إلا من خلال اندراجها ضمن الكل الذي هو الجسد"(24).

يشكّل هذا التصور خلفية يقرأ فيها الباحث الجسد في كليته، وكذلك ضمن جزئيته. لذا، تتبدى الكثير من "الأعضاء" دالة ومعبرة؛ سواء في رمزيتها الإسمية، أم في نسقيتها الإشارية. وفي الحالتين معاً يظهر الجسد بوصفه تحققاً دالاً في "ذاته"، وفي "علاقاته" (الإيماءات)، مما يصيّره ممتلئاً دلالياً؛ حيث "إنّ الجسد خزان الدلالات"(25) تستدعي "الرائي" الذي يبنيها ويولّدها، بحكم طبيعة شكل الجسد وحالات تجلّيه. لهذا، فتفكيك الجسد سميائياً، وتأويل تجليه وحالاته وإيماءاته..، يأتي في سياق كشف طبيعته السوسيولوجية، وكينونته الرمزية، وإحالته النسقية؛ حيث "إنّ الجسد واقعة اجتماعية؛ ومن ثم فهو واقعة دالة. إنه يدلّ باعتباره موضوعاً، ويدلّ

باعتباره حجماً إنسانياً، ويدلُّ باعتباره شكلاً. إنّه علامة، وككل العلامات لا يدرك إلا من خلال استعمالاته، وكل استعمال يحيل على نسق"(26).

يتبدّى الجسد هاماً في الوجود، ويتجلى التأويل مهماً في كشف دلالاته وأبعاده. لهذا، يصير الجسد علامة تترجم الكثير من الأبعاد، وتحمل الكثير من الدلالات. وكأنّ الجسد في كينونته الدالة مرهون بانفتاحه على الآخر الرائي، وبفعله وحركاته التي ينتجها في واقعه أثناء الفعل أو الانفعال. لذا، تمكّن القراءة التحليلية للجسد من اكتشاف طبيعة سياسة الخطاب الذي يبلوره، وإيحاءاته الاجتماعية المتنوعة، ونظام الشبكة العلائقية التي تحكمه؛ على اعتبار أن "خطاب الجسد هو سياسة، وإعادة اكتشاف اجتماعية عبر معرفة القوى التي تحكمه وتخضعه"(27). لكن ذلك يظل مرهوناً بقدرات المؤول على بناء دلالات لهذا الجسد. لهذا، تظل المسارات التدليلية أساسية في بناء إمكانات دلالية، فتصير الواقعة مفتوحة على التنوع والتعدّد الدلالي، الذي تؤسسه مكونات مضمونية يخضع تحليلها لمسارات خاصة؛ لأن "كل وحدة من الوحدات التعبيرية تحتضن داخلها سلسلة من القيّم المودعة في أشكال تدليلية (أو مؤولات بتعبير بورس) تقوم بتنظيم تجلياتها المتعددة. إن الأمر يخص وحدات مضمونية لا تتحقق إلا عبر مسار دلالي خاص، وكل مسار قد يولّد آخر فرعياً وهكذا دواليك. وهذا معناه أن كلّ إمكان دلالي هو في واقع الأمر بناء خاص للواقعة"(28).

4–مرجعية المفاهيم/اللغة والدلالة والتأويل

وزّع الباحث دراسته على شقين؛ الشق الأوّل ارتبط بتحليل موضوع السميائيات وكشف أصولها الفكرية والفلسفية وامتداداتها المتنوعة والمختلفة من جهة، وعلى التصورات المؤسِّسة للسميائيات (البنيوية مع سوسير، والتداولية مع بورس) من جهة ثانية. والشّق الثاني اقترن بتحليل سميائي للوقائع البصرية (الصور) والأنساق الإيمائية التي يعبّر عنها الجسد في حركته ووجوده، وحالاته المختلفة. لهذا، إذا انطلقنا من كون "التوظيف المفهومي في النقد هو توظيف تحتاجه الثقافة وتساعد عليه وتجعله قابلا لأداء دور ما، من أجل إنجاز أهداف"(29)، فهذا يعني أن توظيف مفاهيم السميائيات ليس ترفاً، وإنما هو حاجة إبستمولوجية تقوّي الوعي بأبعاد الوقائع البصرية، ومضمرات الأنساق الإيمائية. لهذا، تتبدّى السميائيات هي المرجعية التي

بني عليها الناقد خطابه النظري والتطبيقي، فظلت مفاهيم هذا الخطاب منشدّة لهذه المرجعية. لذا، تقترن المفاهيم النقدية، لدى الباحث، بالسميائيات؛ سواء كانت مجالاً معرفياً محدّد المعالم نظرياً ومفاهيمياً، أم كانت إطاراً منهجياً مسعفاً للدراسة والتحليل.

انبنت السميائيات، في جوهرها المعرفي، على البحث في الدلالة، وكشف سيرورة بنائها. من هنا، اقترن اشتغال السميائيات على أنساق ونصوص، لغوية وغير لغوية، بالمفاهيم المتّصلة بالدلالة والتأويل واللغة؛ باعتبارها مفاهيم متولّدة من المعالجة المعرفية للسميائيات بوصفها نظرية تبيّن أهمية الدلالة والمعنى، وبوصفها منهجاً يسهم في تحليل ودراسة الأشكال التعبيرية و"الوقائع الإنسانية".

أمكن التّمييز، إذاً، بين مفاهيم ذات طبيعة تجريدية صورية (نظرية)، ومفاهيم ذات خاصية تحققية إنجازية (تطبيقية). هكذا، تعبِّر شبكة المفاهيم النظرية، مثل العلامة والدلالة والتصور السميائي والسيرورة الدلالية والتدليل والوحدات الدالة والملفوظ الإيمائي والعلاقة واللسان والنسق والمعنى والدال والمقولات الفينومينولوجية والتمثيل والسنن والمرجع..، عن الرهان الإبستمولوجي التشييدي الذي اقترحته السميائيات للتعامل مع إشكالية الدلالة. لهذا، تتبدى استراتيجية التنظير لدى الباحث مفتوحة على كشف أهمية المعرفة العلمية (السميائيات) في التنظير لكيفية اشتغال الدلالة وبنائها، عبر آليات مضبوطة تمكن من فهم وإدراك ذلك الاشتغال، وتمثله في علاقة بمختلف النصوص التي يمكن أن يطالها التحليل، وإن كانت غير لغوية أو أدبية؛ حيث "لم تحصر السيميائيات مجال اشتغالها في حدود أنماط الخطابات اللغوية المختلفة، بل تعدّتها إلى غيرها من الإنتاجات الفنية وغير الفنية التي تعتمد وسائط غير اللغة. كما أنها وسّعت اشتغالها ليشمل أنماط الفضاء وممارسات فعلية مثل الطبخ وغيره. وجعلت من نفسها نظريةً شاملةً وعلماً عاماً لكل العلوم"(30).

وتدلُّ شبكة المفاهيم الإنجازية، مثل النسق البصري والظاهرة البصرية والتسنين الثقافي والتمثيلات البصرية والذات المبصرة والعلامة الإيقونية والفعل البصري والدال الإيقوني والاستعمال الاجتماعي والنصوص الصورية والبناء التشكيلي والواقعة البصرية والنسق الإيمائي والمعمار الجسدي والوحدات الإيمائية والشكل الثقافي ..، على ملاءمة خطاب التنظير لفعل

التحليل. في هذه الحالة، تظهر أهمية الذات الباحثة في الإنتاجية النقدية القائمة على إدراك النظرية ومرجعياتها المؤسسة ومفاهيمها الضابطة، ثم مقاربة نصوص تعبيرية وسلوكات سميائية وحالات جسدية خضعت لقصدية دالة في الإنتاج والسلوك والإيماء. إنّ الإنتاجية النّقدية تبيّن أنّ الناقد تجاوز التصور التقليدي الذي "يطبق" المنهج السميائي على "النص"، مهما كانت طبيعة تجلّيه، نحو تصوّر إنتاجي قوامه إدراك حدود السميائيات، وفهم الخصائص المميزة لاشتغال "مفاهيمها" المركزية، دونما إغفال للمعطيات الثقافية المتولّدة عن شرط "القصدية" المؤطرة لكل نسق إشاري أو واقعة بصرية.

–تركيب: إن كتاب "السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها"، للناقد والمترجم والسميائي سعيد بنكراد، يعدُّ تجربة نقدية نظرية وتحليلية جادة، ومعبّرة عن اجتهاد نقدي قوامه التأسيس. إن الكتاب يبني خطابه المعرفي المتميز حول السميائيات بوصفها تصوراً نظرياً، وباعتبارها منهجاً لتحليل الوقائع البصرية والإيماءات الحركية للجسد وحالاته المختلفة، علاوة على النصوص الأدبية والتعبيرية والفنية. من هنا، شخَّص الكتاب تصوراً إبستمولوجياً، بآليات نقدية بيداغوجية، عالج الخلل المعرفي الذي ولّده التعامل مع السميائيات، في اتجاهها البنيوي والتداولي، فأبرز حدودها النظرية، منذ لحظة التأسيس، وبنيتها المفاهيمية، وقابليتها للإدراك والتشغيل في قراءة النصوص والعلامات. لهذا، أمكننا القول إن كتاب "السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها"، ومعه مشروع بنكراد السميائي برُمَّته، يشيّد معرفة نظرية وتحليلية تبسط التصور النظري برؤية علمية غايتها الإيضاح، فقطعت مع الخطابات النقدية الموسومة بالإبهام. إنه درس نقدي بيداغوجي يؤسس لفكرة مفادها، في تقديرنا الخاص: مهما تبدّت طبيعة النظرية أو المنهج النقدي مغرقة في التجريد، الذي يضمر صعوبة في الضبط والتحديد، فإن الباحث الحق هو الذي يجعل النظرية مفهومة والمنهج مُدركاً، عبر دينامية نقدية خلاقة، وقابلين للاندماج في استراتيجية إنتاجية قوامها المعقولية والملاءمة لخطاب التنظير أو إجراءات التحليل.

الهوامش

1–سعيد بنكراد، السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الأمان–منشورات الاختلاف–منشورات ضفاف، الرباط–الجزائر–بيروت، ط1، 2015. نشير إلى صدور هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة 2003، ضمن منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.

2-نفسه، ص: 13-14. والتّشديد من عندنا.

3-علي حرب، الممنوع والممتنع: نقد الذات المفكرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط1، 1995، ص: 17.

4-نفسه، ص: 164.

5-سعيد بنكراد، السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، ص: 9-10.

6-د.فيصل دراج، "مستقبل النقد الأبي العربي"، ضمن: د.سعيد يقطين- د.فيصل دراج، آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003، ص: 97-98.

7-سعيد بنكراد، السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، ص: 10.

8-نفسه، ص: 12- 13.

9-نفسه، ص: 17.

10-نفسه، ص: 19.

11-سنضع أمام كل نموذج نص رقم صفحته في الكتاب، تجاوزاً لتضخيم الهوامش.

12-نفسه، ص: 37.

13-نفسه، ص: 61.

14-نفسه، ص: 64.

15-نفسه، ص: 65.

16-نفسه، ص: 65. والتّشديد من عندنا.

17-جونثان كولر، مدخل إلى النّظرية الأدبية، ترجمة: مصطفى بيومي عبد السلام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص: 93.

18-سعيد بنكراد، السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، ص: 84.

19-نفسه، ص: 87.

20-نفسه، ص: 93.

21-نفسه، ص: 99.

22 -نفسه، ص: 129.

23-نفسه، ص: 135.

24-نفسه، ص: 140.

25-نفسه، ص: 148.

26-نفسه، ص: 152.

27-تيري إيغلتون، نظرية الأدب، ترجمة: ثائر ديب، دار المدى، دمشق، ط1، 2006، ص: 341.

28-سعيد بنكراد، السميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، ص: 167.

29–حمد الدغمومي، "المفاهيم النقدية"، ضمن: المفاهيم تكوّنها وسيرورتها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 2000، ص: 110.

30–عبد الرحيم جيران، سراب النظرية، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، ط1، 2013، ص: 68–69.